الأسطول العُماني ودوره في نشر ثقافة السلام في البلدان المطلة على المحيط الهندي في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي

The Omani fleet and its role in spreading the culture of peace in the countries bordering the Indian Ocean in the second half of the seventeenth century AD

د.خليل بن عبد الله العجمي، باحث في التاريخ العُماني، وزارة التربية والتعليم-سلطنة عُمان

ملخص: يتناول هذا المقال دور الأسطول العُماني في إرساء ثقافة السلام في الفترة التي تلت طرد البرتغاليين من عُمان سنة 1650م وحتى 1700م والتي انتهت بوفاة الإمام سيف بن سلطان (قيد الأرض) والتي كان فيها الأسطول العماني بأوج عطائه ذلك الأسطول الذي تم بنائه وفق الأنظمة الحديثة لذلك العصر حينما أدرك أئمة اليعاربة ضرورة امتلاكهم لأسطول كان الغرض منه تأمين السواحل العمانية وحرية النشاط التجاري مع دول المحيط الهندي، وستعالج هذه الورقة الجوانب الآتية المساعدات التي قدمها الأسطول العماني للمناطق التي استنجدت بأئمة اليعاربة، من خلال معرفة دور الأسطول التجاري العُماني الذي كان ما أن يحل بمكان حتى يعمل على نشر السلام والتسامح وتأمين حرية حركة مرور السفن والبضائع التجارية عبر السواحل، والذي كان يتجنب سياسة الأعداء ضد الإخطار الأوروبية حتى يمخر الجميع بسلام، كما يبحث في الادعاءات التي تقول أن الأسطول العماني كان يمارس القرصنة، والتي كانت بالفعل مجرد ادعاءات لا أساس لها من الصحة بدليل تلك الرسائل المتبادلة بين أئمة اليعاربة الأوائل مع القوى الأوربية المتواجدة في المحيط الهندي والتي كان يطغى عليها الرغبة في التعاون وتحقيق المصالح بينهم، وأن الأسطول العماني لم يكن يبادر بشن أي هجمات ضد أي طرف ما لم يشكل الطرف الآخر ضده أي تهديدات فقد كان يسمح بحرية المرور للسفن الأجنبية إذا أحسنت التصرف مع الأسطول العماني، كما يتناول دور أئمة دولة اليعاربة في نشر التسامح والتعاون مع الشعوب الأخرى والتي ساهمت في عدم التعرض للسفن الأجنبية، وما يترتب على ذلك من فرض الأسطول العُماني هيبته لنشر السلم في المنطقة من خلال سياسة الوقوف على الحياد في صراع القوى الأوروبية المتواجدة في المحيط الهندي مع بعضها والرغبة في حفظ السلم والأمن.

الكلمات المفتاحية: الأسطول الحربي، السلم البحري، القرصنة، التسامح، التعاون.

ABSTRACT: This article deals with the role of the Omani fleet in establishing a culture of peace in the period following the expulsion of the Portuguese from Oman in 1650 AD to 1700 AD, which ended with the death of Imam Saif bin Sultan (the land registry), in which the Omani fleet was at the height of its fleet, When the imams of the warriors realized the need to have a fleet was intended to secure the Omani coasts and freedom of business with the Indian Ocean countries, and this paper will address the following aspects of the assistance provided by the Omani fleet to the areas that appealed to the imams of warp, Which was to replace peace, tolerance and secure the free movement of ships and commercial goods across the coast, which avoided the policy of enemies against the European notification so that everyone was safe. He also discussed

the claims that the Omani fleet was engaged in piracy, which Were indeed baseless allegations as evidenced by the exchange of messages between the early imams of the Warlords with the European powers in the Indian Ocean, which was dominated by the desire to cooperate and achieve the interests of them, and that the Omani fleet would not initiate any attacks against any party unless it forms The road The other was against threats which allowed freedom of movement for foreign ships if they were well disposed of with the Omani fleet. It also dealt with the role of the imams of the State of Warbara in spreading tolerance and cooperation with other peoples, which contributed to non-exposure to foreign ships. In the region through a policy of neutrality in the struggle of the European powers in the Indian Ocean with one another and the desire to maintain peace and security.

Keywords: naval fleet, maritime ladder, piracy, tolerance, cooperation.

مقدمة:

جاء الإسلام برسالة عالمية ذات مبادئ قائمة على العدل والمساواة وإحقاق الحق. ومن هنا شرّع الإسلام الجهاد من باب الدفاع عن النفس وتخليص المستضعفين من أيدي الظالمين وقد نهج في ذلك منهج عدم التعرض للضعفاء والنساء والأطفال بل ومعاملة الأسرى معاملة إنسانية بعيدة عن التنكيل والتعذيب(السباعي1998م،ص8)، وقد حث الإسلام على التعاون بين الشعوب ونشر رسالة السلام بين الإنسانية كافة (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**)(البقرة:208).

ناهيك على أنه دعا أتباعه إلى التعيش السلمي مع من يخالفهم في الدين واحترام كل المعاهدات والمواثيق التي تبرم مع غير أتباعه. لقد كان ديناً لا يحمل لغير أتباعه الحقد أو الضغينة إلا من أظهر ذلك للمسلمين واعتدى عليهم، من هنا أوجب الإسلام الجهاد من باب أعلاء كلمة الله والدفاع عن الدين الإسلامي "(التكريتي2005،ص335) حيث قال الله عزوّجل: **(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)(البقرة:190).**

وفي الحروب التي خاضها اليعاربة بعد تأسيس دولتهم في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي لم يبتعدوا عن تلك المبادئ التي رباهم عليها الإسلام، فأغلب الحروب التي شنوها لم تكن إلا للدفاع عن أراضيهم وأموالهم وأنفسهم، ولم يكن هدفهم مطلقاً خوض الحرب لذاتها، كما كانت معاملتهم مع أسرى الحرب بعيدة عن التنكيل والتعذيب؛ بل معاملتهم كانت معاملة إنسانية أوجبها الذين ينتمون إليهم وما كان يحصلون عليهم من أموال في تلك الحروب؛ إنما هي غنائم حرب لا تتعارض مطلقا مع منهج الإسلام.

فلا تذكر المصادر العُمانية ولا حتى الأجنبية أنهم مارسوا الظلم بحق أعدائهم أو الشعوب التي خضعت لهم، وأن كل الأمر ينطلق من باب الجهاد، والدفاع عن أراضيهم وأنفسهم وحتى ما يحصوا عليه من جراء تلك العمليات الحربية يندرج تحت باب الغنائم والمكتسبات الحربية، فلا نستبعد أن من كان يعمل في تلك العمليات ينطلقوا من باب تعاليمهم الإسلامية ومن توجيهات قادتهم وأئمتهم. ولذا فان مشكلة الدراسة تتمثل في السؤال الرئيس التالي:

-ما دور البحرية العمانية في إرساء ثقافة السلام في البلدان المطلة على المحيط الهندي في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي؟

وتفرع عن هذا السؤال أسئلة الدراسة الفرعية التالية:

1.ما الأسباب التي دفعت العُمانيين لتأسيس البحرية العمانية زمن حكام اليعاربة الأوائل؟.

2.ما أبرز الأسباب التي دفعت الأوروبيين لإلصاق تهمة القرصنة بحق الأسطول اليعربي؟.

3.ما ابرز المساعدات التي قدمها الأسطول العماني في إرساء ثقافة السلام في البلدان المطلة على المحيط الهندي في القرن السابع عشر الميلادي؟

أما عن أهداف الدراسة فهي:

-التعرف على أهمية تأسيس أئمة اليعاربة لأسطول بحري في عُمان في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي.

-تفنيد إلصاق تهمة القرصنة عن الأسطول العُماني اليعربي.

-الكشف عن الدور الحضاري للأسطول العُماني في إرساء ثقافة السلام في السواحل المطلة على المحيط الهندي.

انخفضت التجارة الخارجية العُمانية أثناء فترة الاحتلال البرتغالي الذين كانوا يتعقب السفن العربية متخذا القرصنة والهجمات المفاجئة طريقة للاستيلاء عليها في المحيط الهندي، رغم أن مسقط في تلك الفترة كانت تستورد السكر والأرز والقطن والصوف من الهند لكن مع احتكار البرتغاليين لأرباحها(بيدويل، 1985، ص17)، وبعد أن تمكن العُمانيون من إقصائهم عن البلاد، بدأت حركة التجارة تعود من جديد مستفيدة من تطور الأسطول التجاري والحربي الذي استطاعوا به أن يُحكموا سيطرتهم على الخليج العربي وغرب الهند مما أدى إلى انفتاح البلاد اقتصاديا، وهاجر الكثيرين من المناطق الداخلية إلى الساحل للعمل بالتجارة(أحمد، 1994، ص41).

وبدأ السكان يمارسون أنشطتهم التجارية مع الأقطار المختلفة في غرب الهند و شرق أفريقيا، مستغلين حركة الرياح الموسمية التي تتحكم في أوقات ومواعيد سفرهم، ففي طريق الذهاب تستغل اتجاه الرياح الجنوبية الغربية وعند العودة تستغل الرياح الشمالية الشرقية، وكانت هذه الرحلات تحمل معها أشخاص مؤهلين على خوض البحار وما ينجم فيها من تقلبات للطقس(ترمنجهام، 1973، ص35).

لقد لعب موقع عُمان الجغرافي، وطول سواحلها البحرية، ووجود الصحراء، والجبال الأثر الكبير في دفع السكان إلى الاستيطان بالقرب من السواحل والعمل في مجال الصيد والبحر؛ نتيجة شحّ الموارد الطبيعية(السيار، 1992، ص84). ويبدو أن الوصول بالأسطول العُماني إلى الحد الذي تهابه أساطيل الدول الأوروبية لم يكن أمراً سهلا، بعدما تيقن أئمة عُمان أن الصراع مع البرتغاليين لن ينتهي بإجلائهم عن مسقط، فعملوا على تأسيس قوة بحرية وطنية، لمنعهم من التفكير بالاقتراب من السواحل العُمانية، أو تهديد سفنهم التجارية في المحيط الهندي(العجيلي، 1987، ص58)، وحتى يحموا الشواطئ العُمانية، ويتصدوا لأي اعتداءات أجنبية على البلاد، وكذلك لحماية نشاط عُمان التجاري.

فوضعوا الدراسة الوافية لبناء الأسطول العُماني وفق أنظمة ذلك العصر من حيث حجمها، واحتوائها على المدافع الضخمة، وقدرته على تحمل تقلبات البحر، وزودوه بمجموعة من السفن التجارية التي وجدت دعم وحماية الأسطول الحربي(وزارة التراث، 1994، ص9)، فقد حصلوا على خشبه من الهند، وخاصة من إقليم بجوpegu (قاسم، 2000، ص45)، وقد اتخذوا منطقتي سورات ونهر السند مركزين لصناعتها(العجيلي، 1987، ص58)، وبنوا سفناً متطورة اخذوا فكرة بنائها من شكل السفن البرتغالية التي استولوا عليها، مستغنين بذلك عن السفن التي كانت تعتمد على الحبال في شد الألواح بسفن ذات أشرعة مصنوعة من المسامير(العابد، 1988، ص39).

لقد أدرك الإمام ناصر بن مرشد(1649-1624م) أن قوة البرتغاليين تكمن في قوة أسطولهم البحري؛ ولذلك قرر الاهتمام بتنشيط هذا السلاح، لكن وفاته حالت دون تحقيقه، ويعتبر الإمام سيف بن سلطان الأول(1711-1692م) الشخصية التي وضعت حجر الأساس لقيام البحرية النظامية في عُمان، والتي تمكن بفضل قوتها من إحكام سيطرته على الساحل الشرقي لأفريقيا من ممباسا إلى كلوة حتى موزنبيق(الداوود، 1962، ص261)، فوجدت في عصره مجموعة من السفن المختلفة الأحجام والمسميات، فهناك سفينة الملك والفلك وكعب رأس والصالحي والوافي، وكل هذه السفن ضخمة عدا المراكب الصغيرة كان بعضها يحمل ثمانين مدفعا(ابن رزيق، 1995، ص259).

لقد أولى الإمام اهتماما واضحا بتطوير أسطوله البحري الذي بلغ في عهده أوج قوته، فقد كان الإمام يهتم بالسفينة من حيث حجمها وطريقة بنائها حتى أصبحت الدول الأجنبية في الخليج والمحيط الهندي تخشاه(السيار، 1992، ص188)، كما امتلك مجموعة من السفن الحربية القادرة على صد هجمات البرتغاليين، وزاد من عدد جنوده(مايلز، 1983، ص207). ومن أجل تأمينه للأخشاب اللازمة لها عقد مجموعة من الاتفاقيات التجارية مع بعض حكام الهند مما هيأ لهذا الأسطول أن يكون له كيان بحري مستقل، ونفوذ واسع يمتد شرقاً حتى وادي الأندس وغربا إلى شرق أفريقيا(قاسم، 1979، ص56).

ويعزي هاملتون سبب اهتمام العُمانيين بتطوير بحريتهم إلى **" كرههم للبرتغاليين هو الذي دفعهم وحفزهم على بناء السفن، أو اشتروها لمواجهتهم في البحر، ومحاولة تأمين السواحل البحرية ليعملوا على أهانتهم .. حيث تمكنوا بفضل هذا الأسطول من الحصول على بعض الالتزامات المالية على الرغم من قلة سفنهم، ولجوؤهم في بعض الأحيان إلى إشراكهم للسفن التجارية والحربية معا في الصراع "** (Hamilton, 1930m p50-51)، أما (لوكهارت) فيرجحه إلى موقع عُمان المتميز، ووجود ميناء مسقط الذي ساهم في رفد الاقتصاد العُماني، بالإضافة إلى حب العُمانيين للملاحة والمغامرة الجغرافية (لوكهارت، 1978، ص89).

ويصف القس (مانويل جودنهو) في رحلته المؤرخة سنة 1663م قـوة البحرية العُمانية بقوله: **" ولم يكتف – أي سلطان بن سيف – بإجلائنا عن بلاده بل اجترأ على اقتفاء أثرنا حتى بالبلاد التابعة لنا إذ حاصر منبسه، وعاكسنا في بمباي، وأسرت سفنه سفنا برتغالية كثيرة "**(جيان، 1927، ص251-252)، فقد أخذ الإمام على عاتقه ضرورة مطاردة البرتغاليين في البحار

الشرقية؛ لتخليص الجميع من أخطارهم، ونشر السلام بين الشعوب التي عانت من ظلمهم، وبلغت البحرية العُمانية في عهده ذروتها، لدرجة إنها نافست فيها الأساطيل الأوروبية المتواجدة في المحيط الهندي، مما جعل الآخرون يأخذون الحيطة والحذر في التعامل مع هذا الأسطول أو التعرض له بسوء(العابد، 1988، ص64).

حتى أضحى هذا الأسطول، كما وصفه ويلمسون-رئيس الوكالة الهولندية في مسقط سنة 1674م- بأنــه كان:(سلوت، 1993م)**" يتكون من خمسة عشر سفينة إلى ستة عشرة سفينة مع سفن صغيرة مرابطة لها مزودة بأسلحة تراوحت بين90-95 مدفع يقودها الملاحون الذين يستدعون في حالة الضرورة من أعمالهم الفردية في الصيد والملاحة، وكان يشتغل فيه العمال والملاحين والحمالين الذين يتقاضون أجراء بين 9-12لارية"** (سلوت، 1993، ص197)، ويقدم (مارتن فرانسوا) واصفاً الأسطول العُماني المتواجد في المحيط الهندي، بأنه كان يتكون من 12- 15 سفينة مدججة بأسلحة حربية، وكان على استعداد لمواجهة البرتغاليين.

ومن بين سفنه ما هو ضخم بدليل كلام فرانسوا أنها تتسع حمولة كل واحدة منها مابين 35-500 طن حيث تمكنوا من خلال أسطولهم هذا من الاستيلاء على حمولة مجموعة من السفن تابعة لتجار أثرياء بالقرب من مسقط، لكن على النقيض الآخر يرى بعض الأوروبيين والرحالة الذين زاروا المنطقة خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر أن ازدهار البحرية العُمانية يشكل خطرا قادما للبحار الشرقية، وهذا ما أوضحه الرحالة فريزر Fraser أثناء زيارته للخليج سنة 1677م موضحا كيف أن اليعاربة بدؤوا يشكلون خطرا على البرتغاليين، وهذا أيضا ما أوضحته شركة الهند الشرقية الانجليزية بقولها **"وأنهم قائمون على الدوام على سلب البرتغاليين، والاحتراس يقتضي ألا نحاول استفزازهم أو الاشتباك معهم إذ أننا لن نجني من وراء ذلك شيئا سوى ضربات تكال علينا "**(مايلز، 1983، ص207).

لقد حملت كثير من مؤلفات الرّحالة والكتاب الأوروبيين عبارات القسوة بحق الأسطول العُماني، وضرورة الاستعداد لمواجهته، فكانت تقارير شركة الهند الشرقية الانجليزية حافلة بالتعليمات إلى مراكزها ووكلائها خاصة في بندر عباس بضرورة الاستعداد والتصدي لأيه محاولات انتقامية وهجومية من قبل الأسطول العُماني، الذي كان يوقف حركة زحف البرتغاليين لاحتلال إقليم ما، فكان من جملة ما كتبه نائب الملك في الهند في رسالة إلى حكومة لشبونة جاء فيها: **"أصبح العرب على ثقة كبيرة بأنفسهم[..] بحيث يتطلب مواجهتهم إرسال أسطول كبير لا من أجل تدميرهم فقط , وإنما من أجل الحيلولة دون توجههم إلى ممباسا وهو أمر أصبح في مقدورهم تحقيقه"**(أحمد، 1994، ص44).

ولقد وصف ذلك الأسطول قائلا:" **وقد تحولت عُمان في ظل اليعاربة إلى اكبر قوة بحرية غير أوروبية في مياه الشرق، وما كاد ينتهي القرن حتى تمكن الإمام سلطان بن سيف من طرد البرتغاليين من كل ممباسا وكليوا وبمبا، وإرساء أسس أول حكم عُمان لإفريقيا الشرقية"**(كيلي، 1979، ص18)، وفي حقيقة الأمر أن المؤرخين الأجانب دأبوا على وصف الأعمال التي تقوم بها البحرية العُمانية زمن اليعاربة بأنها نوع من القرصنة البحرية، في الوقت الذي تناسوا فيه الأعمال الوحشية التي مارسها البرتغاليون بحق الشعوب التي خضعت

لهم(المليباري، 1985، ص262-263) فاعتبروها نوعاً من الأعمال الضرورية؛ لتكوين الإمبراطورية البرتغالية واللازمة لبناء مستعمراتهم في الشرق، في حين وصفت أعمال العرب بأنها لأجل السرقة والنهب وحب الانتقام(قاسم، 1985، ص115).

وكانت بعض السفن الأوروبية نفسها تمارس عمليات القرصنة بدليل ما ذكره سلوت (SLOT) أنه في بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر أصبح البحر والمكان الذي تتركز فيه القوات الأوروبية ملاذاً لقراصنة البحر الأوروبيين الذين كانوا يهاجمون سفن الملاحة البحرية التجارية، وكانت منطقة ارتكازهم في شمال مدغشقر، وهو لقطاع طرق أوروبيين أجبروا على الخروج من بلدانهم نتيجة التعصب الديني والطائفي وعاشوا يجوبون البحار كقطّاع طرق يتصيدون السفن المارة لنهبها(سلوت، 1993، ص225).

وقد تضررت الدول الأوروبية نفسها من الأعمال التي يمارسها هؤلا الناس، فقد كانوا يهاجمون سفنهم القادمة من الهند، وأرسلوا من أجل ذلك الحملات للقضاء عليهم. وفي أحدى تلك الحملات- التي سيرها الانجليز لهم قبالة سواحل مدغشقر- تمكنوا من إلقاء القبض على الكابتن الانجليزي(موريس)، وتمّ حجزه مع كامل طاقم سفينته، كذلك القوا سنة 1705م القبض على القائد (مورفال) أثناء عودته من البنغال إلى فارس(Hamilton, 1930m p21-45)

للبحرية العُمانية في ذلك الوقت أهدافٌ واضحة، وهي لصدُّ هجوم أي اعتداء خارجي بمعنى الدفاع عن النفس، ولتقديم المساعدة للمناطق التي تستنجد بأئمة اليعاربة كموقف إسلامي يحتم عليهم نصرة إخوانهم في الدين، وهذه ما أعتبر عمل غير مقبول على حسب زعمهم. ويرجع ذلك إلى عدم اعتراف تلك الدول بحق الشعوب في الدفاع عن أراضيها. أما بالنسبة للعمانيين فإنهم اعتبروا ما يقومون به يندرج تحت الرغبة في الدفاع عن وطنهم ولتثبيت أمور الدين(فاين، 1995، ص89)، وقد أوضح ذلك أيضا لوريمر بقوله:" **دأب الأسطول العُماني على الوقوف في وجه كل من هدد أمن وملاحة التجار العرب خاصة والعُمانيين، فلم يتهاونوا في الهجوم واعتراض أي سفينة تابعة لجهة تعرض العُمانيين لخطرها، وخاصة السفن التابعة للقراصنة الهنود، وبعض سفن الانجليز**"(لوريمر، 1994، ص84).

كان واضحا أن نشاط البحرية يهدف إلى تقديم المساعدة والنجدة للشعوب التي تستجدي بأئمة اليعاربة يأتي الواجب يحتم عليهم نصرة بني جلدتهم، ومحاولة منهم من بسط السلم في الأقطار المختلفة وخاصة الضعيفة منها، لعلم شعوبها ما سطره العمانيون من بطولات حينما طردوا البرتغالين من بلادهم بفضل اتحادهم وقوة أسطولهم، فكانت أولى محاولات الاستجداء بالعمانيين لفرض سيطرتهم وهيبتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا، حينما أستنجد ملوك زنجبار وبمبا Pomba سنة 1652م بالإمام سلطان بن سيف الأول بعدما ضاقوا ذرعا بالبرتغاليين؛ فما كان من الإمام إلا أن أرسل أسطوله الحربي إلى هناك، وقد تمكنت القوات العُمانية من هزيمة الحامية العسكرية البرتغالية في زنجبار(أحمد، 1994، ص44)، رغم قلة الجنود العُمانيين الذين استطاعوا- بفضل قوة عزيمتهم- من دحر القوات البرتغالية خارج جزيرتي بتّا وزنجبار (Coupland, 1938, p67-68)، وقد احترم العُمانيون الأديان الأخرى الموجودة هناك كالمسيحيين, وكان هذا كفيلا بدخول الكثير منهم إلى الإسلام(الغنيمي، 1998، ص189-190).

وكدليل على أن العمانيين لم تكن لهم النية في احتلال البلدان التي كانوا يقدموا لها المساعدات، أنهم لم يكونوا يتدخلوا في شؤونها الداخلية، وإلقاء تلك المسألة على شعوبها لتقرر مصيرها، فقد دأب الأسطول العُماني على تلبية النداءات التي تأتيه من سكان شرق أفريقيا، فقد لبى الإمام سلطان بن سيف الأول أيضا نداء أهالي بتا و فازا Faza؛ لتحرير بلادهم من البرتغاليين، فأرسل لهم أسطوله الحربي سنة 1660م الذي تمكن من أحكام قبضته على المدينتين من دون أن يسيطر على قلعة يسوع(Coupland, 1938, p66)، وبعد أن أنهى الأسطول المهمة عاد إلى مسقط بعد أن عين محمد بن مبارك المزروعي حاكما على ممباسا؛ لتنظيم أمورها(السيار، 1992، ص116).

وفي سنة 1666م قام عرب الصومال ببعث رسالة سرية إلى الإمام سلطان بن سيف الأول أوضحوا فيها الظلم والمعاناة الذي وقع عليهم؛ جراء الأعمال التعسفية التي كان يمارسها البرتغاليون ضدهم(شلبي، 1993، ص667)، فبعث الإمام لهم قائده محمد بن مسعود الصارمي على رأس جيش بحري، فوقعت بين الطرفين معركة بحرية تمكنت على أثرها قوات الإمام من طرد المحتلين من أراضي الصومال من دون أن يستقروا بها، بل جعلوا إدارة شؤونها تحت تصرف القبائل المحلية هناك.

وقد عم الفرح أرض الصومال بعد إخراج البرتغاليين منها " **ورجع الأمير إلى عُمان مسرور الحال، واخبر الإمام أخبار سارة عن نهاية القتال ضد الذين كانوا يفعلون أمور المكروه والمنكر، وذكر أن المسلمين يدعون له بالعمر الطويل، والخير الجزيل، لأنه دفع عنهم الذل والبلوى، وتفضل فسمع منهم الشكوى، وكان ذلك الوقت سنة 1076هـ / 1666م، وطاب قلب الإمام لذلك** "(أحمد، 1994، ص44)، ولم تكن للإمام نية في البقاء في أراضي الصومال، وإنما فضل بقاء الحكم في يد أهلها، وفضل للأسطول العُماني الرجوع إلى مسقط دون أن تكون له نية في البقاء.

وفي سنة 1669م قدّم الأسطول العماني المساعدات للإمارات العربية على ساحل شرق أفريقيا نتيجة تعرضها لمضايقات البرتغاليين وقد استطاع ذلك الأسطول أن يوسع نشاطه إلى ما بعد جنوب موزنبيق، من أجل تأمين حركة الملاحة البحرية العربية، وضرب مصالح البرتغاليين، مستغلين توافق المصالح بينهم وبين سكان تلك البلدان في كرههم للبرتغاليين، فالعُمانيون كانوا مصّرين على الانتقام منهم يدفعهم إلى ذلك فرحة الانتصارات السابقة، والمكانة الدينية التي سوف يحظون بها إذا قتلوا في سبيل الدفاع عن دينهم(عثمان، 1987، ص55).

ومنذ احتلال البرتغاليين لممباسا سنة 1632م، واصلوا زحفهم فتمكنوا في هذه السنة أيضا من احتلال بتا التي كان تحكمها قبيلة النباهنة العُمانية، حيث لاقى سكان ممباسا عامة والعرب خاصة الويل من بطشهم وتحملوا مشاق العذاب لمدة نصف قرن من الزمن، وساد زنجبار حالة من الرعب صاحبها يأس من قبل السكان من جموع البرتغاليين (حريز، 1988، ص18). وبعد أن دخل العُمانيون إلى الحصن لم يقتلوا أحداً ممن كان في القلعة من المسالمين، واستولوا على ثروات الحصن بعد أن دلهم عليها أحد البحارة. وبعد أن تمكن العُمانيين من إحكام زمام الأمور في ممباسا ألقوا القبض على ثمانية برتغاليين وثلاثة هنود وامرأتين ممن كانوا في

القلعة(Coupland, 1938, p66)، حيث تم أخذهم إلى مسقط مقيدين بالحديد، وأطلق سراح اثنين من الهنود وتمكن البعض منهم الفرار من قبضة العُمانيين(Axelson, 1960, p175). وبعد الاستيلاء على القلعة عرضت مدينة (مقديشو) الانضمام إلى لواء الإمام سيف(العجيلي،1987، ص176).

وبعد الانتصار الذي حققه العُمانيون، تشكل وفد من زعماء قبائل ممباسا والقبائل العربية والزنجية للقاء الإمام وتهنئته بالانتصار العُماني على البرتغاليين في ممباسا، وعند وصولهم إلى عُمان استقبلهم الإمام وأكرمهم، وبعد أن تلقوا الهبات والمساعدة، أمر أن يحملوا إلى بلادهم على ظهر السفن الضخمة التابعة للإمام وهي: كعب رأس ، والملكي ، والفلكي، و أرسل معهم محمد بن علي العمري؛ ليكون واليا على ممباسا بعد أن أباح القلعة للأهالي، واكتفى الإمام بأخذ الأسلحة(المزروعي، 1995، ص123).

ولم يكن للعُمانيين أية نية في الإقامة في شرق أفريقيا وتكوين دولة تابعة لعُمان ويفسر (سبنسر) ذلك: أن الأحداث التي عصفت بعُمان من صراعات داخلية وصراع بين أبناء البيت الحاكم قللت من اهتمام أئمة اليعاربة الذين أتوا بعد ذلك، بشرق أفريقيا مع أنهم قاموا بتعيين من ينوب عنهم كحكام مباشرين للاهتمام بتسيير شؤونها(ترمنجهام، 1973، ص56)، لكن السلطة بقيت بيد أهلها.

ولقد توفرت عدة عوامل هيأت لعُمان تزعم حركة الجهاد ضد البرتغاليين في شرق أفريقيا أولها قرب الأراضي العُمانية من السواحل الأفريقية، وثانيها الاستفادة من الرياح الموسمية في تسيير السفن إلى تلك المنطقة مرتين في السنة، إذا أضفنا اكتساب أهل عُمان خبرة ملاحية منذ القدم للساحل الشرقي الأفريقي وما يحتويه من موارد طبيعية تمثل جل صادرات شرق أفريقيا مثل العاج والذهب والرقيق(عبد الحليم، 1989، ص165).

ناهيك عن استجابة الإمام سيف بن سلطان الأول لنداءات سكان البحرين لتخليصهم من الفرس، فقد أرسل إليهم أسطوله الحربي سنة 1704م لتقديم النجدة لهم، حيث كان له ما أراد، وبعد أن طرد الفرس منها اختلف أهل البحرين على بقاء القوة العُمانية في بلادهم، فكان قسم يرى بقاء البحرين خاضعة للعُمانيين حتى يتمكنوا من تثبيت أنفسهم ، وليبعدوا عنهم الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها الجزيرة من جديد، والقسم الآخر لم يبدِ أيَّ ترحيب بذلك. فاضطروا للهرب للساحل الشرقي لشبة الجزيرة العربية، رغم محاولة الفرس المتكررة لاستعادة الجزيرة بالتعاون مع بعض الدول الأوروبية لكن هذه الدّول أصرت على عدم التدخل في شؤونها(محمد نجاح، 1996، ص130).

لكن سرعان ما غير الإمام رأيه حول البقاء في البحرين، وقرر سحب القوات العُمانية منها، بعد بقائها لفترة قصيرة من الزمن(سلوت، 1993، ص71)، فقد فضّل عدم التدخل في شؤون الدولة الأخرى، والاكتفاء بتقديم المساعدة لها.

وفي الجهة الجنوبية الغربية كانت سواحل جنوب اليمن قبالة خليج عدن هدفاً لنشاط الأسطول العُماني بحثاً عن أية تحركات للأسطول البرتغالي(القاسم، 1996، ص243)، الذي كان عازماً على الانتقام من الأسطول العُماني سيما بعد طرده من مسقط خاصة اتخذوا مضيق باب المندب

نقطة لعملياتهم ضد السواحل العُمانية. ونتلمس ذلك من الرسالة غير المؤرخة التي بعث بها الإمام سلطان بن سيف الاول إلى الوزير اليمني أحمد بن الحسن الدوافع الحقيقية لتحركات البحرية العُمانية قرابة السواحل اليمنية والتي كانت بغرض تتبع البرتغاليين بدليل كلام الإمام سلطان (..**أنا لما بعثنا جيشنا.. وسلّطناه على جهاد عبدة الأصنام، وقتال أعداء دين الإسلام الذين نقضوا عهودنا، ونكثوا عقودنا، وقتلوا رجالنا، واختطفوا أموالنا..**)(البطاشي، 2001، ص40).

وأوضح الإمام سلطان بن سيف الأول في رسالته أن البحرية العُمانية عندما تقترب من سفن الأجانب كان بهدف معرفة هوية أصحابها لا غير، ولكن الخوف الذي كان يصاحب ذلك هو ما يدفعهم للفزع، وان الرسالة التي كان يريد إن يوصلها هي أن جنوده لا يستبقون القتال إلا إذا تعرضوا لخطر يهدد حياتهم (**فإن أصحابنا لم يعترضوه إلا لمعرفة أهله وتمييزه ، فقتلهم جنودك وحشودك لأنهم اقبلوا في زورق صغير وأصحابك في مركب صغير**)، ويبين له كذلك تنبيها هاما أنه إذا ارتكب أصحابه أي ذنب بحق سفن أي دولة دون وجه حق، فلن يتوانى مطلقاً في معاقبتهم، حتى يرد الحق إلى أهله (**أن أصحابنا إن كانوا اقترفوا ما لا يحل من الفعال فاءنا من ذلك صغير الراحة، بقي الساحة لأني نهيتهم وزجرتهم، وخوفتهم وحذرتهم ، فمن أراد منهم الإنصاف في شي أبلغتهم إياه، و أنفذت له فيهم حكم كتاب الله**)(البطاشي، 2001، ص41)، ولم يكن العُمانيون يضمرون سوء النية للزيديين فلقد كان همهم الانتقام من البرتغاليين، حيث أوضح ذلك صاحب كتاب يوميات صنعاء حين قال: (**ولم يكن لهم قصد إلا في الفرنج لما بينهم من الحروب فيما مضى..**)(القاسم، 1996، ص178).

واستطرد قائلا:(**ونظنكم تعلموا أن الفرنج حرب لنا من سالف الزمان ونستحل قتلهم ومالهم..**) وقد أوضح له عتابه الشديد لوقوفه بعض الأحيان مع البرتغاليين ضد العُمانيين (**..لكننا بلغنا أنكم في جناب الله قد فرطتم ولأعداء الله على أصحابنا قد عاضدتم**)(البطاشي، 2001، ص48).

وفي سنة 1081هـ / 1671م قدّم الإمام سلطان بن سيف الأول مساعدة لسكان اليمن ضد الهجمات البرتغالية، عندما أرسل أسطوله الحربي لفك الحصار الذي فرضه البرتغاليون على جزيرة سوقطرة(Sergeant, 1983, p84)، كما قدم لهم مساعدات مادية عام1082هـ / 1672م عبارة عن ألفي رطل(وحدة وزن،2000رطل=907) من الرصاص لمساعدتهم ضد البرتغاليين بعد هجماتهم المتزايدة على السواحل اليمنية، واستيلائهم على بعض من المراكب هناك، ومن بينها مركبين من المراكب العُمانية كانت متجهة إلى عُمان(القاسم، 1996، ص32-34).

وعكست الرسائل المتبادلة بين أئمة اليعاربة ومندوبين الشركات الأوروبية ما يؤكد على أواصر التعاون والاحترام المتبادل بين الطرفين. فمن الرسالة التي وجهها (فان ويك) المدير الهولندي في بندر عباس إلى الإمام سلطان بن سيف سنة 1665م عارضا عليه التعاون ، والسماح للهولنديين بإقامة وكالة تجارية(طارق،د.ت،ص15) لهم في مسقط، فما كان من الإمام إلا أن رد عليه برسالة جاء فيها: "**إن رسالتك تلك ملأى بالتفهم ومفعمة بالتعبيرات اللائقة ومحلاه بعبارات الود والنبل واللطف والأدب.. لقد جاءنا مبعوثك معربا عن رغبتك بإرسال شخص بإذن الله إلى مدينتنا التجارية مسقط... على أن يستخدم لهذا المشروع بعض البواخر**

والمراكب لنقل البضائع منها وإليها لغرض التجارة، وأنه سيحضر إلينا بعض الأشخاص من قبلكم للإقامة في مدينتنا التجارية للقيام بكل ما يلزمك من خدمات. ونحن إذ نجيب على طلبك هذا، نؤكد بأن مدينتنا التجارية هي مدينتكم التجارية..)(سلوت، 1993، ص179-180).

كما عيّن الإمام سلطان سفيراً له في بتافيا، بغرض توطيد العلاقات التجارية بين البلدين، حيث أظهر اليعاربة حسن نواياهم تجاههم وعدم معاملتهم معاملة الأعداء، ويتضح من ذلك إطلاقهم لسفينة هولندية كانت قد صودرت في الهند(سلوت، 1993، ص182)، وعندما ناقش المسئول الهولندي إمكانية تطوير التجارة الهولندية مع عُمان، أبدت عُمان ترحيبها بإقامة علاقات تجارية وسياسية مع هولندا، ويظهر ذلك واضحا في رد ممثلي الإمام سلطان بن سيف للأب كير Abbe Carre قائلين له: **"أن عُمان ستكن مزيدا من الاحترام والتقدير لفرنسا إذا لم تشن حربا ضد الهولنديين أهم أصدقائهم الذين يساعدونهم بالذخائر في حروبهم ضد البرتغاليين، وأن مساعدتهم هي التي مكنتهم من تسليح أسطولهم في مسقط، ومهاجمة هذا الأسطول للبرتغاليين في باسيين"**(العجيلي، 1987، ص99).

ورحب الإمام سلطان بن سيف الأول كذلك بالتعاطف مع الفرنسيين، لوقوفهم على الحياد في حربه مع البرتغاليين، ومن أجل ذلك أرسل شخصين إلى الأب (كارنية) شكر من خلالهما الفرنسيين على وقوفهم معه وعدم محاربتهم للهولنديين، حيث قام الإمام بتزويدهم بالأسلحة وبعض الإدلاء البحريّن في حربهم مع البرتغاليين في غرب الهند.

وهكذا رأينا الدوافع من تأسيس البحرية العمانية خلال فترة حكم أئمة اليعاربة الأوائل، والآثار التي ترتبت عليها مستفيدة من موقع عمان الجغرافي وطول سواحل عمان وتامين الحصول على الأخشاب من أجل تأسيس قوة بحرية وطنية ساهمن في درء الأخطار التي تهدد عُمان وأسطولها التجاري مستفيدة كذلك من الدعم الذي لقاءه من الأئمة لدرجة أصبح معها من القوة أن أتهم بأعمال القرصنة لكن كان له أهداف نبيلة لصد الهجمات الخارجية، ولتقديم المساعدة للمناطق التي تستنجد بالعمانيين الأثر الأكبر في تقديم المساعدات للشعوب التي تستنجد بالعمانيين لتخليصها من الاحتلال البرتغالي، والعمل على نشر ثقافة السلام فيها، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج منها:

-انخفاض حجم التجارة الخارجية العُمانية أُثناء الاحتلال البرتغالي في بداية القرن السادس عشر الميلادي مع احتكارهم لأرباحها.

-أدرك أئمة اليعاربة أهمية تأسيس بحرية نظامية في عُمان وفق أنظمة ذلك العصر.

-كان نشاط البحرية العمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي يهدف إلى تقديم المساعدة والنجدة للشعوب التي تستجدي بأئمة اليعاربة.

وتوصي الدراسة في نهاية البحث بالجوانب التالية:

-تبني مؤسسات البحث العلمي استقطاب الوثائق من الأرشيفات الأجنبية فيما يتعلق بفترة الاحتلال البرتغالي لعُمان.

-قيام الباحثين بدراسة طبيعة العلاقات الاجتماعية والثقافية للأسطول العماني خلال فترة الدراسة.

قائمة المراجع:

1. ابن رزيق، حميد بن محمد(1995).الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين. تحقيق:عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله، ط5، مسقط: وزارة التراث القومي الثقافة.
2. أحمد، عبد النبي علي(1994).الصراع العُماني البرتغالي في شرق أفريقيا. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة: كلية الآداب.
3. البطاشي، سيف بن حمود(2001). إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان. ج3، ط1، رتبه وعلق عليه: سعيد الهاشمي، مسقط: مكتب المستشار جلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية.
4. الحلو، صادق ياسين(1994). الغزو البرتغالي من خلال المصادر الفرنسية. مجلة الوثيقة، ع26، س13، البحرين: مركز الوثائق التاريخية.
5. الحمداني، طارق نافع. عُمان في كتب الرحلات والتعليقات والوثائق الأوروبية.مجموعة بحوث ودراسات بعنوان، المراكز الحضارية العُمانية وتطورها،نسخة مصورة ،المكتبة الرئيسية: جامعة السلطان قابوس، تحت رقم : DS247.O62 S52k
6. الداود، محمود علي(1962). تاريخ السيادة العُمانية في المحيط الهندي. مجلة كلية الآداب، ع5، بغداد: العراق.
7. الربيعي، إسماعيل نوري(1994). النشاط عُمان البحري خلال القرن الثامن عشر. مجلة الوثيقة،ع24، س13، البحرين: مركز الوثائق التاريخية.
8. السيار، عائشة(1992). دولة اليعاربة في عُمان وشرق أفريقيا. ط2، أبو ظبي: مطابع دار صحف الوحدة.
9. الشقصي، خميس بن سعيد(1979). منهج الطالبين وبلاغ الراغبين. ج8، تحقيق: سالم بن حمد الحارثي، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
10. العابد، صالح محمد(1988). الصراع العُماني البرتغالي خلال القرن السابع عشر. مجلة الوثيقة،ع13، س7، البحرين: مركز الوثائق التاريخية.
11. العجيلي، غانم محمد رميض(1987). قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عمان 1624-1749م. رسالة ماجستير منشورة، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة.
12. الغنيمي، عبد الفتاح(1998). الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا. ط1، القاهرة: عالم الكتب.
13. القاسم، يحيى بن الحسين(1996). يوميات صنعاء في القرن الحادي عشر. ط1، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي.
14. المزروعي، الأمين بن علي(1995م). تاريخ ولاية المزارعة في أفريقيا الشرقية. تحقيق: إبراهيم الزين صغيرون، لندن: منشورات البحر الأحمر.
15. المغيري، سعيد بن علي(2001). جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار. ط4، تحقيق: محمد علي الصليبي، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
16. المليباري، أحمد بن زين الدين. تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين. ط1، حققه وعلق عليه: محمد سيد الطريحي، بيروت:مؤسسة الوفاء.
17. الهاشمي، سعيد محمد(2002). ولاية عبري في التاريخ الحديث. كتاب عبري في التاريخ، ط1، مسقط: حصاد الندوة التي أقامها المنتدى الأدبي في عبري من20-21أكتوبر1999م، 2002م.
18. بيدويل، روبين(1985م). عُمان في صفحات التاريخ. ترجمة: محمد أمين عبد الله، سلسلة تراثنا،ع7، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.

19. ترمنجهام، سبنسر(1973). الإسلام في شرق أفريقيا. ترجمة وتعليق: محمد عاطف النواوي، ط1، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية.
20. جيان، المسيو(1927). وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية. ط1، نقله إلى العربية: يوسف كمال، القاهرة.
21. حريز، سيد حامد(1988). المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية في شرق أفريقيا. ط1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت: دار الجبيل.
22. حنظل، فالح(1997). العرب والبرتغال في الخليج. ط1، أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي.
23. سلوت، ب.ج.(1993). عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية. ط1، ترجمة: عايدة خوري، أبو ظبي: شركة أبو ظبي للطباعة والنشر.
24. شلبي، أحمد(1993). موسوعة التاريخ الإسلامي. ج6، ط1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
25. قاسم، جمال زكريا(1979). البرتغاليين وعرب عُمان.ع176، الكويت: مجلة العربي.
26. قاسم، جمال زكريا(1985). الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي1507- 1840م. القاهرة: دار الفكر العربي.
27. قاسم، جمال زكريا(2000). دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا. أبو ظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ.
28. عبد الحليم، رجب محمد(1989). العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام. مسقط: مطابع النهضة.
29. عثمان، عبد الرازق علي(1987). البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها.ج2، رأس الخيمة: أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية.
30. فاين، بيتر(1995). تراث عُمان. ترجمة: دار الغرافيك العربي، لندن: دار أيميل للنشر.
31. لوكهارت، لورنس(1978). التهديد العُماني في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر. ترجمة: علاء الدين أحمد حسين،ع10، جامعة البصرة: مجلة الخليج العربي.
32. مايلز، س. ب(1983). الخليج بلدانه وقبائله. ترجمة: محمد أمين عبد الله، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
33. كيلي، جون.ب(1979). بريطانيا والخليج. ج1، ترجمة: محمد أمين عبد الله، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة.
34. لوريمر،ج.ج(1995). السجل التاريخي للخليج. ج1، م1، ترجمة: جامعة السلطان قابوس، ومركز الشرق، لندن.
35. محمد، نجاح(1996). تاريخ شبة جزيرة العرب الحديث. دمشق: منشورات جامعة دمشق.
36. وزارة التراث القومي والثقافة(1994). عُمان تاريخا وعلماء. ط1، ترجمة: محمد أمين عبد الله، ع10، مسقط.
37. Boxer, C.R and Carlos De Azevedo(1960). Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593 1729. London.
38. Coupland,R.East(1938).Africa and its invaders.firstedition.londn:ford at the clarendon
39. Eric, Axelson(1960). Portuguese in south East Africa 1600-1700. First published, Capetwon ,University press Johannesburg

40. amilton, Alexander(1930). New Account of the east of the Indies. Vol. 1, London: the Arconaut Press

41. .ergeant .R.B(1983). Omani naval activities off the southern Arabian coast in the late11th17th Century, from Temeni Chronicles. The Journal of Oman studies. Articles presented to the conference on Oman studies held in Muscat, Muscat: ministry of national heritage and culture.